٤ - المجوس

هم قوم من الثنوية القائلين بالاثنين ، فلقد أثبت المجوس أصلين اثنين مدبرين قديمين ، يقتسمان الخير والشر والنفع والضرر والصلاح والفساد ، يسمون أحدهما النور ومنه الخير ، وهو « يزدان » والآخر هو الظلمة ومنه الشر وهو « اهرمن » .

ولقد اختلف المجوس فى قدم الأصلين : فزعم كثير منهم أن الله تعالى قديم ، والشيطان محدث ، أى أن النور قديم والظلمة محدثة ، واجتمعوا على أن العالم محدث ، ومن الله حدث الشيطان ، ويختلفون على أقاويل فى ذلك ، فمنهم من قال إن الله تعالى فكر وقال أخاف أن يحدث فى ملكى من يضادنى ، فحدث من ذلك الفكر الردىء الشيطان .

وقال بعضهم : إن الله نور ذو أشخاص ، وأن الشخص الأعظم شك فى شىء من الأشياء ، فحدث الشيطان من ذلك الشك .

وقال آخرون : لم يزل مع الله شىء ردىء يولد الشيطان منه .

وقال بعضهم : لم تزل معه عفونة فتولد الشيطان من تلك العفونة .

ويرجع المتكلمون أساس قول المجوس بالاثنين إلى أنه قد عظم فى رأيهم أن من يفعل الخير لا يصدر منه الشر .

ولقد ذكر ابن حزم أن المجوس تقول بخمسة قدماء هى : البارى تعالى وهو « أورمز » وإبليس وهو « اهرمن » وكام وهو الزمان ، وجام وهو « المكان والخلاء » ونوم وهو « الجوهر والهيولى والطينة والخميرة » ، وأن اهرمن فاعل الشرور ، وأورمز فاعل الخير وأن نوم - هو المفعول فيه كل ذلك[1] .

ويذكر الشهرستانى أن المجوس ثلاث فرق هى : الكيومرثية والزروانية والزرادشتية ،وفيما يلى آراء هذه الفرق بشىء من التفصيل :

---

(١) الماتريدى : التوحيد ص ١٧١ ، القاضى عبد الجبار : المغنى حـ ٥ ص ٧١ - ٧٢، الرازى : اعتقادات المسلمين والمشركين ص١٣٤ ،ابن حزم:الفصل فى الملل والنحل جـ ١ص٣٤ .

١ - الكيومرثية :

هؤلاء قد أثبتوا أصلين هما يزدان واهرمن (النور والظلمة) وقالوا بأن يزدان قديم واهرمن محدث مخلوق .

وقالوا بأن « اهرمن » خلق عندما فكر يزدان فى نفسه إن كان له منازع كيف يكون ، وهذه فكرة رديئة غير مناسبة لطبيعة النور ، ومن هذه الفكرة الرديئة حدث الظلام (اهرمن) .

ثم يقولون فى حدوث الصراع بين النور والظلمة ، إن (اهرمن) كان مطبوعا على الشر والفتنة والفساد والضرر والإضرار ، فخرج على النور وخالف طبيعة النور، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوهما ، على أن يكون العالم السفلى خالصا لأهرمن مدة سبعة آلاف سنة ، ثم يخلى العالم ويسلمه إلى النور ، ورأى الرب أن الصلاح فى احتمال مكروء إبليس إلى أن ينقضى الشرط ، ثم يعودون إلى النعيم ، وشرط إبليس على الرب ن يمكنه من أشياء رديئة يفعلها فالناس بذلك فى البلايا إلى أن ينقضى الشرط .

والذين كانوا فى الدنيا عند دخول إبليس أبادهم ، ثم بدأ برجل يقال له « كيومرث » ولقد ذكر الشهرستانى ، أن كيومرث هو آدم عليه السلام ، وحيوان يقال له ثور ، فقتلهما ، فنبت من مسقط ذلك الرجل ريباس أى نبات ، وخرج من أصل ريباس رجل يسمى ميشة وامرأة اسمها ميشانة وهما أبو البشر ، ونبت من مسقط الثور الأنعام وسائر الحيوانات .

ويزعم « الكيومرثية » أن النور قد خير الناس وهم أرواح بلا أجساد ، بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن ، وبين أن تلبسهم الأجسام ، فيحاربوا أهرمن ، فاختاروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن ، على أن يكون لهم النصرة من عند النور والظفر بجنود أهرمن وحسن العاقبة ، وعند الظفر به أو هلاكه وجنوده تكون القيامة[1] .

فذلك هو سبب الامتزاج عندهم بين النور والظلمة ، وأيضا سبب الخلاص ، ولا يخلو سبب الخلاص عندهم من معنى أخلاقى ، فهو يقوم على فكرة أخلاقية هى

---

(١) القاضى عبد الجبار : المغنى حـ ٥ ص ٧١ ، ٧٢ ، والشهرستانى : الملل والنحل حـ ٢ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

مقاومة الشر ، أما كيفية الامتزاج وكيفية الخلاص فواضح فيه قيامه على جانب أسطورى وعبارات أسطورية .

٢ - الزروانية :

وهى فرقة من المجوس كانت تسود أيضا مثل الكيومرثية الأساطير الفارسية ، وقد قيل إنها عاصرت النبى سليمان بن داود وأنها قاومته مقاومة عنيفة[١] .

والزروانية تشبه الكيومرثية ، إلا أنها تختلف فى تصوير نشأة الموجودات ، فلقد قال الزروائية إن النور أبدع أشخاصا من نور كلها روحانية نورانية ربانية ، إلا أن أعظمها هو زروان .

ولقد قالوا إن زروان قد شك فى شىء من الأشياء ، فحدث (اهرمن) من ذلك الشك .

وقال بعضهم إن زروان قد فكر فى نفسه أن يكون له ابن ثم لم يكن ، وحدث فى نفسه ، لعل هذا العالم ليس بشىء ، فحدث (اهرمن) من ذلك الهم .

وزعم بعض الزروانية أنه لم يزل كان مع الله شىء ردىء إما فكرة رديئة وإما عفونة رديئة ، وذلك هو مصدر الشيطان .

وزعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والفتن ، وكان أهلها فى خير محض ونعيم خالص ، فلما حدث اهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن .

وعن الصراع بين النور والظلمة ، يقول الزروانية بمثل ما قالت به الكيومرثية ، مع خلاف بينها فى بعض التفصيلات .

لكن الشهرستانى يذكر صورة أخرى لهذا الصراع حكاه عن أبى حامد الزورنى حيث قال : إن المجوس زعمت أن إبليس كان لم يزل فى الظلمة والجو الخلاء بمعزل عن سلطان الله ، ثم لم يزل يزحف ويضرب بحيله حتى رأى النور ، فوثب وثبة فصار فى سلطان الله فى النور ، وأدخل معه هذه الآفات والشرور ، فخلق الله سبحانه وتعالى هذا العالم شبكة له فوقع فيها ، وصار متعلقا لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه فهو محبوس فى هذا العالم ، مضطرب فى الحبس ، يرمى بالآفات والمحن والفتن إلى خلق الله ، فمن أحياه الله رماه بالموت ، ومن أصحه رماه بالسقم ، ومن

(١) د . على سامى النشار : نشأة الفكر حـ ١ ص ١٩٠ .

سره رماه بالحزن ، فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة ، وكل يوم ينقص سلطانه حتى لا يبقى له قوة ، فإذا كانت القيامة ذهب سلطانه وخمدت فيه نيران ، وزالت قوته ، واضمحلت قدرته فى الجو ، والجو ظلمة ليس له ولا منتهى ، ثم يجمع الله سبحانه أهل الأديان فيحاسبهم ويجازيهم على طاعة الشيطان وعصيانه[1] .

وهذه صورة يتجلى فيها دور الإنسان فى مقاومته الشر،ودعوة له بإتيان الخير ، حيث إنه سوف يحاسب على ذلك ، لكنها أيضا لم تخل من الجانب الأسطورى .

٣ - الزرادشتية :

هم أصحاب زرادشت بن يورشب ، الذى ظهر فى زمن كشتاسف بن لهراسب الملك ، وأبوه من أذربيجان وأمه من الرى[2] .

وتذهب الأساطير والروايات المختلفة إلى الولادة غير الطبيعية لزرادشت ، ويحيطونه بشىء من التقديس ، وأن الله قد أكرمه واختاره .

فيزعمون على ما يروى الشهرستنى عنهم ، من أن الله عز وجل خلق منذ الأزل ، خلقا روحانيا ، فلما مضت ثلاثة آلاف سنة ، أنفذ مشيئته فى صورة من نور على تركيب صورة الإنسان ، وأصف به سبعين من الملائكة المقربين ، وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض وبنى آدم ، عير متحركة ثلاثة آلاف سنة ، ثم جعل روح زرادشت فى شجرة أنشأها فى أعلى عليين ، وغرسهـا فى قمة جبل من جبال أذربيجان ، ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة فشربه أبو زرادشت ، فصار نطفة ، ثم مضغة فى رحم أمه ، فقصدها الشيطان وغيرها ، فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالات على برؤها فبرأت ، ثم لما ولد ضحك ضحكة ، تبينها من حضر ، واحتالوا على زرادشت حتى وضعوه بين مدرجة البقرة ومدرجة الخيل ومدرجة الذئب ، وكان ينتهض كل واحد منهم بحمايته من جنسه[3] .

وتؤكد الأساطير الفارسية أن زرادشت قضى فترة طويلة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره فى التأمل والتفكير ، وقضى سنوات كثيرة يجوب الصحراء يتغذى بقطعة

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ٢ ص ٧٦ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ٢ ص ٧٧ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ٢ ص ٧٧ .

من الجبن تتجدد من تلقاء نفسها ، وهم يذكرون أن النور كان يغمر الجبل الذى لجأ زرادشت إلى أحد كهوفه .

ولما بلغ الثلاثين من عمره اعتزل الناس وآثر الوحدة والعزلة عن الناس ، ولجأ إلى قنن جبال الهضبة الإيرانية ، بعيدا عن زحمة الحياة ، وهناك اتخذ من المياه والطير والحيوان والشمس والقمر والنجوم السيارات أساتذة له يتلقى عنها أسرار الحياة ، فأخذ يتأمل فى جوهر هذا الخالق المبدع لكل هذه الكائنات والمخلوقات[1] .

وفى هذه العزلة والتأمل والتفكر اختاره الإله الأعظم اهرندا ليبلغ رسالته إلى الناس ، وقد لاقى زرادشت مقاومة من الكهنة ورجال الدين ، لأنه جاءهم بدين جديد ، يزلزل سلطانهم ، واتهموه بأنه يحاول هدم دين الآباء والأجداد .

ولقد عانى زرادشت كثيرا فى سبيل دعوته ، إذ أمضى حوالى عشر سنوات ، دون أن يستجيب لدعوته أحد ، وكان أول معتنق لديانته هو ابن عمه .

ودعى زرادشت الملك كشتاسب وكان ملكا قويا يحكم الجزء الشرقى من إيران الذى يدين بالوثنية ، دعاه إلى دينه الجديد ، وتحكى الأساطير الكثير من المعجزات التى أظهرها زرادشت للملك وحاشيته ، حتى آمن به وناصر دعوته .

وكان هذا الملك هو سيف هذا الدين الجديد وحاميه وظهرت طبقة الكهنة وأخذت على عاتقها نشر الدين الجديد ، وأرسلوا المبشرين بهذا الدين فى البلاد المختلفة .

ولما دخل الإسلام بلاد فارس ، اعتنق معظم أتباع زرادشت الديانة الإسلامية، وبقى بعض منهم على ديانتهم ، وهم الذين يذكرهم المؤرخون الإسلاميون باسم المجوس ، وقد فر بعضا منهم إلى الهند ، وظل مجوس الهند على اتصال بمجوس فارس .

ولقد أصابت الهند حركة ركود واضمحلال دينى فى بداية القرن التاسع عشر ، ثم أخذت فى الانتعاش منذ منتصف القرن التاسع عشر ، عندما أقبل علماء الإفرنج على دراسة هذه الديانة فى كتبها ونصوصها الدينية ويقدر أتباعها اليوم بأكثر من مائة ألف[2] .

---

(١) أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة ص ١٨ .

(٢) أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة فى مواضع متفرقة .

ولقد ذكر الشهرستانى : أن من المجوس الزرادشتين صنف يقال لهم السيسانية والبهافريدية ، رئيسهم رجل من رستاق نيسابور يقال لـه « خـواق » ، خرج أيـام أبـى مسلم صاحب الدولة ، وكان زمزميا فى الأصل يعبد النيران ، ثم ترك ذلك ، ودعا المجوس إلى ترك الزمزمة ورفض عـادة النيران ، ثم أمرهم بارسال شعورهم ، وحرم الأمهات والبنات والاخوان وحرم عليهم الخمر وأمرهم باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة ، وهم يتبادلون الأموال ولا يأكلون الميتة ولا يذبحون الحيوان حتى يهرم، وقد قتله أبو مسلم، ولكن أصحابه يقولون أنه صعد إلى السماء[1]

أما عن الديانة الزرادشتية ، فلقد دعى زرادشت إلى عبادة الله والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الخبائث .

ولقد قال بالنور والظلمة وهما أصلان متضادان ، وكذلك يزدان واهرمن وهما مبدأ موجودات العالم ، وحصلت التراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، والبارى تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة ، لكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث ، إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، ولو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، وهما يتقومان ويتغالبان ، إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ، والشر ينحط إلى عالمه ، وذلك هو سبب الخلاص .

ويرى زرادشت أن البارى تعالى هو الذى مزجهما وخلطهما لحكمة رآها فى التركيب، وربما جعل النور أصلا وقال وجوده وجود حقيقى، أما الظلمة فتتبعه كالظل بالنسبة إلى الشخص، فإنه يرى أنه موجود وليس بموجود حقيقة، فابدع النور وحصل الظلام تبعا ، لأن من ضرورة الوجود القضاء ، فوجوده ضرورى واقع فى الخلق لا بالقصد[2] ، ويمكن أن يقال إن هذا التفسير لامتزاج النور بالظلمة ، يعنى أن الخير هو الذى له وجود حقيقى ، أما الشر فهو وجود بالعرض ، وهو لازم لوجود الخير .

ولقد أضاف زرادشت إلى الإله لأعظم أهرمزدا ، كل صفـات التقديس والجلال ، فهو واحد أزلى قديم لم يلد ولم يولد ، وهو علة العلل وليس له علة ،

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ٢ ص ٧٨ ، ٧٩ .

وهو المصدر الأول لجميع الموجودات ، وهو روح الأرواح لا يرى ، وهو يعلم الماضى والحاضر والمستقبل ، وهو القادر على كل شىء ، ولا يحد من قدرته مناهضة الشيطان له ، لا يفتقر إلى شىء وكل شىء مفتقر إليه ، وهو خالق الخلق كله ، والملائكة الأبرار ، كما خلق الجنة والنار والشمس والقمر والنجوم والماء والأرض والشجر والدواب والمعادن والناس أجمعين[١] .

ولقد قال زرادشت بالمعاد، فإن خيار الناس ينالون فى الحياة الآخرة ما يستحقون من الجزاء ، تعويضا لحرمانهم فى الحياة الدنيا ، كذلك سينال الآثمون جزاءهم من العقاب على ما اقترفوه فى الحياة الدنيا ، فقد جاء فى كتاب « الأبستاق » سوف تبتهج نفوس الخيرين فى الحياة الثانية الخالدة ، كما سيتعذب الكاذبون إلى الأبد[٢] .

ويمكن عد خلاص النور من الظلمة بمثابة المعاد ، كما يمكن عد الامتزاج بينهما بمثابة بداية العالم .

ولقد ذكر ابن الجوزى أن مما سنه زرادشت لأتباعه عبادة النار[٣] - والواقع أن النار شأن كبير فى الديانة الزرادشتية لكن ينكر أتباع زرادشت الموجودون حتى الآن ، إنهم يعبدون النار ، والحق أن المجوس بعيدون عن الوثنية ، ولكنهم يجعلون للنار المكان الأسمى فى احتفالاتهم وطقوسهم الدينية فهى رمز للعبادة وهى عندهم أصفى وأطهر العناصر المخلوقة لا أنها الخالق المعبود[٤] .

ولقد ذكر الشهرستانى أن المجوس يعظمون النار لمعان منها أنها جوهر شريف علوى ، ومنها أنها ما أحرقت إبراهيم عليه السلام ، ومنها ظنهم أن التعظيم ينجيهم فى المعاد عن عذاب النار ، وبالجملة هى قبلة لهم ووسيلة وإشارة أهل الأهواء والنحل[٥] ولقد ذكر الشهرستانى بيوت النار التى أقامها المجوس .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى المجوس ، وعدهم الفقهاء من الفرق التى يؤخذ منها الجزية .

* * *

(١) أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة ص ٤٣ - ٤٨ .

(٢) أحمد الشنتناوى: الحكماء الثلاثة ص٤٩ .(٣) ابن الجوزى: تلبيس إبليس ص٧٥ .

(٤) أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة ص ٢٨ ، وأيضا د. محمد إبراهيم الفيرمى ، فى الفكر الدينى الجاهلى ص ١٩٢ .

(٥) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ٢ ص ٩٣ .